المرأة الأندلسية بين الواقع الاجتماعي و الإبداع الأدبي (دراسة تحليلية)

Andalusian Women Between Social Reality and Literary Expression: An Analytical Study

د. عبد المجيد بغدادي

أستاذ مشارك، ورئيس قسم اللغة العربية

جامعة العلامة إقبال المفتوحة إسلام آباد

د. شبانة نذر

أستاذ مشارك ، قسم اللغة العربية

الجامعة الاسلامية ببهاولبور

Abstract

Islam had a profound impact on Andalusian women, granting them a privileged status in Andalusian society. Andalusian women enjoyed social, cultural, and religious freedom, setting them apart from women in Eastern societies. Andalusian women began receiving education from a young age, learning the Holy Quran, Arabic, arithmetic, and calligraphy, which contributed to their brilliance in Islamic studies, literature, and poetry.

In addition to the fact that Andalusian women participated in many social and cultural activities, and excelled in fields such as medicine, pharmacy, astronomy, and history. This reflects their active role in Andalusian society, as they enjoyed equality with men in many aspects. From this standpoint, I wrote this research entitled (The Impact of Islam on Andalusian Women), which sheds light on Islam's view of women who contributed greatly to the development of Andalusia. The research came in two chapters: The first was about Muslim women in Andalusia, freedom and its impact on the creativity of Andalusian women. As for the second, the choice fell on some Andalusian women who were characterized by literary and scientific creativity, and then the impact of this creativity on the development of Andalusia. The research came out with results that were presented in detail with sources and references.

Keywords: Islam, Andalusian women, Andalusian society, cultural and religious freedom, the Holy Quran, Arabic, arithmetic

المقدمة:

تأثرت مكانة المرأة عبر التاريخ بالنظرة القاصرة التي أحجمت دورها في المجتمعات كافة، إذ كانت ليست ذات أثر يذكر حتى جاء الاسلام ليغير حال المرأة بعد أن أعطى حقوقها كاملة وشاركت الرجل في أغلب مجالات الحياة، ثم انتقل الاسلام الى الاندلس ونقل معه نظرة المرأة المسلمة، فأصبحت ذات حضور واضح في المجتمع الاندلسي، ولعل المرحلة الثانية التي أعقبت الفتح تشكلت هناك شخصية المجتمع الاندلسي، فكان المجتمع يختلط فيه العرب والبربر والاسبان فيولد هنا مجتمع أندلسي جديد، بات للمرأة فيه أثر واضح في التقريب بين السياسيين وخصومهم فضلا عن اقامة أواصر المودة والوئام بينهم(1)

يتبين من ذلك أن المرأة في المجتمع الاندلسي تولدت من جديد فأصبحت ذات شأن ومكانة ولها مشاركة وحضور في المجالات كافة. فاندماج المجتمع الاندلسي مع العرب والبربر والاسبان جعل تبادل العادات والقيم أمر في غاية الاهمية ولا سيما بعد حدوث كثير من المصادرات بينهم أسهمت في انتاج مجتمع يتميز بانفتاح وتطور فضلا عن تمسكه بمبادئ الاسلام التي أحبوها وسعوا الى تطبيقها في أمور حياتهم المعاشية. فشاركت المرأة الرجل في السياسة والأدب والتجارة، وباتت تشكل حلقة وصل في حل النزاعات .

ويكاد المجتمع الاندلسي ان يتميز عن غيره بالحس الشعري فهي سمة مشتركة بين أفراده ، وقد استطاعت المرأة الاندلسية أن تظفر بحظ كبير من النشاط العلمي والادبي ، فكان لها نصيب وافر في الشعر جعلها في بعض الاحيان تتفوق على الرجال.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في بيان صورة المرأة في الأدب الاندلسي ، وذلك لأن هذا الموضوع لم يأخذ حقه بدراسة وافية مستقلة، وقد اتبعت فيه منهجية الاستقراء للأدب الاندلسي وموضوعاته وأساليبه الفنية، ومن ثم الوقوف عند بعض النصوص ودراستها، ولم أتقيد بمنهج محدد وإنما أفدت من مختلف المناهج الحديثة بحسب ما اقتضته الدراسة. ولعل مما صادفني هو قلة المصادر والمراجع التي تروي لنا أخبار النساء الاندلسيات وأشعارهن، فبذلت ما وسعني الجهد لأذلل هذه القضية.

وتمخضت مادة هذه الدراسة على مبحثين، تفرغ الأول منهما للحديث عن بنية المجتمع الاندلسي نظراً لتعدد أجناسه، وأديانه، ثم بيان مكانة المرأة في المجتمع الاندلسي على الصعيدين العلمي والأدبي، وكشفت عن مكانتها لدى الأدباء الاندلسيين، وبسطت في المبحث الثاني خصائص الصورة الفنية ومصادرها في شعر المرأة الاندلسية، فبينت اللغة والأسلوب والأوزان الموسيقية والصورة الشعرية، وتوضيح أهم الشاعرات والأديبات الاندلسيات.(1)

ولعل أهم الروافد التي أفادت البحث هي مصادر الأدب ومراجعه، وبعض رسائل الماجستير والدكتوراة.

المرأة في المجتمع الاندلسي

يعد الإبريون أول من سكن الأندلس، وإليهم تنسب شبه الجزيرة الإيبيرية. ثم السلطيون، فالبسك، ثم استوطنها الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد فاحتلوا الشواطئ الجنوبية واستوطنوا بعض أقاليمها مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة، وعلى المحيط الاطلنطي مدينة قادس. وفي القرن السابع قبل الميلاد احتلها الاغريق وأقاموا بها بعض المدن، منها مازال ماثلا مثل: برشلونة.

ووفد القرطاج يون عليها بعدهم بنحو قرنين وأسسوا في شرقيها مدينة قرطاجنة. وفي القرن الثالث قبل الميلاد اجتاحها الرمان وأزالوا دولة قرطاجنة، واصبحت البلاد تابعة لإمبراطوريتهم الواسعة، واطلقوا عليها اسم (إسبانيا) وهيمنوا عليها مدة طويلة حتى غلبتهم قبائل الوندال الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي، فتسمت البلاد باسمهم(فاندال وسيا) أو (فندلس).

ثم زحفت قبائل أخرى من الجرمان تُعرف بالقوط فأجلت الوندال وتفردوا بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم. ثم دخلها العرب المسلمون الفاتحون سنة 92هـ- 711م فأبقوا على اسمها (فندلس) وأبدلوا اللفظة لتنسجم مع لسانهم فقالوا(أندلس)(2)

وقد حافظ الإسبان على مدلول هذه التسمية بعد خروج المسلمين منها، واخذوا يطلقون اسم(أندلسيا) على جنوب البلاد: إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية وولبة ومالقة وقادس. وقد أضاف الفتح الاسلامي إلى المجتمع الأندلسي عناصر جديدة تمثلت ب(3)

1- **العرب:**

وهم الذين وفدوا مع جيوش الفتح الاسلامي إلى الأندلس وسموا بالبلديين، وسُمي من جاء بعدهم بالشاميين.

2- **البربر:**

وهم الذين رفقوا طارق بن زياد لفتح الاندلس السياسي، والثقافي، ولما تفرق شمل الاندلس نشأت إمارات وممالك كان للبربر نصيب منها، وأما أصولهم فهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادعت طائفة منهم إلى اليمن إلى حمير، وبعضهم إلى بُر بن قيس بن عيلان، وهذه رواية ضعيفة، والأغلب انهم من ولد قبط بن حام بن نوح عليه السلام، ومن صفاتهم فهم أشبه العجم بالعرب ونجدة وصبراً، وفروسية، وسماحاً، غير أنهم أغدر الناس، لا وفاء لهم ولا عهد.(4)

3- **المولدين:**

وهم الذين ينحدرون من أصلاب المسالمة، أو هم الجيل الناشئ من عملية التزاوج بين أهل البلاد والداخلين من المسلمين عقب الفتح الإسلامي، وقد احتفظ كثير من المولدين بأسمائهم القديمة

مثل: بنو أنجلين، وبنو شبرقة، وبنو الخريج، وبنو القبطرنة، وبنو مردنيش. وظل اسم المولدين يُطلق على هذا العنصر من الناس حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ثم تلاشت هذه التسمية وذلك بسبب اختلاط الناس وتحول أهل الدولة الإسلامية. في الأندلس إلى أندلسيين من دون تمييز .(5)

4- **عجم الذمة:**

ويطلق عليهم عجم الأندلس المستعربين، وهم الذين بقوا على دينهم من الإسبان، ولكنهم تثقفوا الثقاف العربية وتعلموا لغة العرب وعاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين، يتمتعون بحرية تامة في ممارسة شعائرهم الدينية، وعُرفوا بعجم الذمة، وكان هؤلاء همزة الوصل بين الثقافة العربية والأوربية، وكانوا يؤلفون جمهرة سكان البلاد في السنوات الأولى التي تبعت الفتح الإسلامي للأندلس، وما لبثوا أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية في الأندلس.(6)

5- **الموالي:**

وهم الذين دخلوا في ولاء البيت الأموي وشكلوا قوة سياسية في الاندلس، وقد دخل منهم إلى الاندلس قبائل من البربر في موالاة البيت الأموي. ومن هؤلاء الموالي : بنو الخليع، وبنو وانسوس، ودخل من أهل الاندلس عدد كبير في ولاء بني أمية أمثال(بنو بارون)، (وبنو قسي)، و(بنوغومس)، وقد تقلدوا مناصب رفيعة في الدولة نظراً لتفانيهم واخلاصهم للبيت الأموي، فأصبح منهم الوزراء والكتاب والقضاة.(7)

6- **الصقالبة :**

وهم في الأصل رقيق أو عبيد من سبي الشعوب بيعوا الى عرب الأندلس، ثم توسعوا في هذا الاسم فأصبحوا يطلقونه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الاوربية بما في ذلك شمال إسبانيا المسيحي، وبعضهم من أسرى الحرب من القشتاليين، والفرنج، وقد كان معظم فتيان الصقالبة من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد، والإيطاليين، وأهل البلقان وغيرهم، ولما أفل نجم بني أمية بسط الصقالبة سلطتهم على عدد من المدن شرقي الأندلس، وكان للأسيرات أثر فعال في الأندلس، لأنهن بضاوات شقراوات، يتم اختيار عشيقات الأمراء منهن، وحين تنجب الواحدة منهن تصبح حرة.(8)

وعلى هذا الاساس فإن التكوين البشري للمجتمع الاندلسي كان مزيجاً من عناصر كثيرة، وهذه العناصر والاجناس امتزجت مع بعضها امتزاجاً تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم، فكانت نزعة عقلية جديدة ساعد على تكوينها بيئة طبيعية حافلة بشتى المناظر والصور الجميلة، وكان من أثر ذلك أن أصبحت لهم مميزات عقلية خاصة وصفات لم تكن لغيرهم.

من ذلك يمكن القول أن المرأة في الأندلس لم تكن شخصية واحدة ثابتة محددة، انما هناك أكثر من شكل وصورة للمرأة الأندلسية بحكم الظروف التي جمعت أجناس مختلفة الطباع والعادات في مكان واحد، وتمكنوا من الاختلاط والمصاهرة وتكوين جيل جديد يحمل مختلف الطباع والعادات.(9)

الحياة الخاصة للمرأة الاندلسية

تتمركز المرأة في الأندلس في ثلاث طبقات:

الطبقة الاولى: وهي الطبقة الأرستقراطية، والتي تمثل الطبقة المترفة، تعيش حياة الثراء والغنى.

الطبقة الثانية: وهي الطبقة الوسطى، والتي تمثل الطبقة المتوسطة في المعاش بين الغنى والترف.

الطبقة الثالثة: وهي الطبقة الفقيرة ، والتي تمثل الطبقة المعدمة التي تعاني من الفقر والبؤس. لذا فإن المرأة في الاندلس تسعى الى تحقيق الرفاهية وتنشد الغنى إذا ما جمعنا الاغلبية في الطبقتين الاولى والثانية.

ولكن ساهمت المرأة الاندلسية مساهمة فعالة في العمل الخيري، وارتبط ذكر عدد كبير من النساء بالعمل الخيري، فقامت المرأة مثلا في نشر الدعوة الاسلامية، وبناء المساجد ونشر التعليم، ومساعدة الفقراء والايتام، وقد نتج عن ذلك أن نبغ في الاندلس عدد كبير من النساء كان لهن أثر واضح في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في الاندلس.

فحظيت المرأة بوضع أكثر تميزاً من وضع أخواتها في المشرق، لأنها كانت تتمتع بحرية واسعة ، فكانت تتحين الفرص للمطالبة بحقوقها، فلا تسكت على ضيم، ولا تبالي بلومة لائم طالما ترى انها صاحبة حق. وتمتعت كثير من النساء الاندلسيات بثراء فاحش، وكن يملكن الاموال والضياع ويوكلن من يسيرها لهن، وكانت لهن أملاكهن الخاصة البعيدة كل البعد عن أملاك أزواجهن، كما امتهنت المرأة الأندلسية مهن كثيرة منها مهنة الطب، وبرزت منهن في تلك المهنة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، ومن المتقدمات في الطب أيضاً أم عمرو بنت عبد الملك بن أبي مروان بن زهر. من ذلك يتبين أن المرأة في الأندلس قد تبوأت مكانة اجتماعية متميزة وفق ما تبذله من جهود لمواكبة الحياة، فمادامت تسلك طرقاً تساهم في بناء المجتمع فإنها تشكل عنصراً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه، وهي بذلك تختلف عن النظرة السابقة للمرأة في الأندلس قبل دخول الاسلام.

فالتعاليم الاسلامية اسهمت بشكل كبير في إعطاء حرية الحركة والمشاركة للمرأة، فاستثمرت تلك الحقوق التي منحها الاسلام لتثبت للعالم بانها لا تقل أهمية عن الرجل بل وأحياناً تفوق الرجل في مجالات شتى.

ولابد من بيان المواقع التي برزت فيها الصورة الفنية المبدعة للمرأة الأندلسية، ومعرفة أهم الشخصيات النسوية التي برزت أسماؤهن ودونها التاريخ لتبقى علامة مميزة في مسيرة المرأة.(10)

أثر المرأة في الحياة الاجتماعية:

بعد دخول العرب الى الأندلس اختلط الجنس العربي بالإسباني نتيجة المصاهرة ، فولد جيل جديد يحمل صفات مشتركة من الاثنين فضلا عن تأثر العربي بالمرأة الاسبانية والمرأة العربية بالرجل الاسباني ومحاولة الاندماج الذاتي بينهم التي فتحت المجال لظهور الفن والابداع ولا سيما ان الطبيعة كان لها الأثر الواضح في ذلك.

فكان للمرأة اثر واضح في الحياة الاجتماعية في الاندلس، ويمكن تجسيد أثرها في:

1-الزواج: عند دخول العرب كقوة عسكرية الى الاندلس لم يكونوا معظمهم قد صحبوا زوجاتهم، مما جعل ذلك سبباً في الزواج من الاسبانيات.

2-التعرف على الجمال الاسباني أثار الرجل العربي، مما جعله سبباً في حب الارتباط.

3-جمال الطبيعة أثار المشاعر والأحاسيس والرغبة في الحب ومبادلة العواطف، فولد ذلك حاجة الى الارتباط.

4-حاجة الرجل الى المرأة المتحررة وحب مشاركتها الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

فهذه الاسباب وغيرها كانت ذات أثر واضح في بيان دور المرأة ومكانتها المتميزة التي كانت سبباً في ظهور مجالات شتى للإبداع لم تكن لها وجود مسبق.

نساء مبدعات في الأندلس

ليس من شك ان الابداع لم يكن في مجال واحد، بل يشمل مجالات الحياة أجمع، ولكن يمكن أن يكون الابداع الفني في الشعر أحد المجالات التي برزت في الأندلس وكان أثرها واضح، فاحتلت المرأة فيه مكاناً متميزاً،

1- **العجفاء:**

وهي أول شاعرة ظهرت في الأندلس، وكانت من الجواري الوافدات من المشرق، ولا نعرفها باسمها، فذلك شيء غاب عن مؤرخي الأندلس، كانت صفتها(عجفاء) أي هزيلة، ضعيفة، نحيلة. تدربت على الإنشاد الديني والأدبي والعزف والغناء، ويُروى انها دخلت من المشرق إلى الأندلس ومعها (عابدة المدينة) وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة حالكة اللون، غير إنها كانت تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وغيره من علماء المدينة. وقيل انها كانت تروي عشرة الآف حديث.(11)

2- **حسانة التميمية:**

وهي أول شاعرة ظهرت على أرض الأندلس ، وليست من الوافدات، لأنها مولودة في الأندلس في غرناطة فضلا عن كونها من الحرائر، وملكة الشعر عندها موروثة عن أبيها الشاعر أبي الحسين بن أبي

المخشي، عاشت الشاعرة أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث ، عن أبيها تعلمت الشعر، فلما مات أبوها كتبت مديحاً للحاكم الحكم بن هشام الربضي، قالت فيه:

إني إليك أبا العاصي موجعة أبا المخشي سقته الواكف الديمُ

قد كنت أرتع في نعماء عاكفة فاليوم آوى إلى نعماك ياحكم.(12)

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه وأمر لها بإجراء راتب دائم وكتب إلى عامله على إلبيرة، فجهزها بجهاز حسن. وقد ضربت حسانة مثلا رائعاً في عدم استكانة المرأة الأندلسية المسلمة التي يقع عليها ظلم.

3- عائشة بنت أحمد القرطبية:

وهي عالمة وأديبة وشاعرة، كانت تمدح الملوك في زمانها، وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها ، فتبلغ ببيانها، إذ لا يبلغه كثير من أدباء وقتها. ولا ترد شفاعتها. وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وماتت عذراء لم تتزوج قط، ولها شعر أرسلته إلى بعض الرؤساء أوله:

لولا الدموع ما خشيتُ عزولا فهي التي جعلت إليك سبيلاً

وتصرفت في شعرها أحسن تصرف، ومحاسنها كثيرة، وماتت سنة أربعمائة هجرية، وقد عشقت عائشة أحد أبناء المنصور ابن أبي عامر، وولعت به. دخلت يوماً على المظفر ابن المنصور إبن أبي عامر وبين يديه ابن صغيرله، فارتجلت:

أراك الله فيه ما تريدُ ولا برحت معاليه تزيدُ

فقد دلذت مخايله على ما تؤمله طالعه السعيدُ

فسوف تراهُ بدراً في سماء من العليا كواكبهُ الجنودُ

فأنتم آل عامر خير آل زكا الابناءُ منكم والجنودُ

وكانت عائشة ذات أسلوب أدبي خاص وفريد، تمتعت به من دون سائر نساء ورجال عصرها.(13)

4- صفية بنت عبد الله الربّي:

وهي من أشهر النساء الأندلسيات من عُرفن بتجويد الخط وتجميله، وكانت أديبة وشاعرة، فقد ورد أن امرأة قد عابت خطها حسداً، فقالت صفية:

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف أريكِ الدُّر في نظم أسطري

وناديتُ كفي كي تجود بخطها وقرّبتُ أقلامي ورقي ومحبري

فخطّت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو بها خطي فقلت لها انظري

ولم تكن صفية متفردة في هذا الفن الجميل، بل كانت هنالك خطاطات أندلسيات نابغات بحسن الخط منهن: فاطمة بنت زكريا الشبلاري، وطونة بنتُ عبد العزيز، وعائشة بنت أحمد القرطبي وغيرها.(14)

يتبين من ذلك ان مجال الخط هو من المجالات الحديثة التي دخلت المرأة فيه بمنافسة جميلة، ولّدت ابداعاً جميلاً أسهم في ظهور نساء مبدعات في مجال الخط الذي كان سابقاً تتصدر فيه أسماء الرجال فقط، وأصبح هذا الفن أحد أهم الفنون الذي أظهر المرأة إلى الساحة العلمية، وجعلها منافسة للرجل. ومن ذلك يمكن القول أن الأندلس هي التي فتحت مجال هذا الفن عند النساء للظهور.(15)

النتائج

مثلت المرأة في الأندلس نموذجا نادراً من النساء العالميات، من خلال الصفات التي تحلت بها وتكونت نتيجة جملة من الاسباب أهمها:

1) دخولها في مجتمع جديد يتكون من خليط أجناس مختلفة في البلد والديانة والعقيدة.
2) توفر نسبة من الحرية، التي مكنت المرأة من التحرك والمشاركة في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية.
3) عاشت المرأة في طبيعة خلابة وفرتها بيئة الاندلس المتسمة بالجمال الخلاب.
4) توفر عنصر المنافسة بين النساء مما خلق روح الابداع في المجالات كافة.
5) المصاهرة والتزاوج بين الجنسيات المختلفة، ولّد جيل جديد يؤمن بقيم حديثة ومتطورة.
6) استطاعت المرأة ان تنافس الرجل في الميادين كلها، وتتفوق عليه في بعض الميادين.

الهوامش والمصادر

1 أوقاف المرأة في الأندلس ودورها الحضاري: بحث، د. أنور محمود زناتي، كلية التربية ، جامعة عين شمس، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم.

2 المصدر نفسه.

3 المصدر نفسه.

4 المصدر نفسه.

5 تاريخ افتتاح الأندلس- ابن القوطية- تح. تح. د. عبد الله الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1415 هـ- 1994م،.قسم اللغة العربية.

6 المصدر نفسه.

7 المصدر نفسه.

8 دور المرأة في الحياة الاجتماعية في الاندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، بحث: الاستاذ الدكتور جاسم ياسين الدرويش، 2016.

9 المصدر نفسه.

10 المصدر نفسه.

11 المصدر نفسه.

12 المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، اعداد: محمد صبحي أسعد ، اشراف: الأستاذ الدكتور حسين يوسف خريوش، 2001م، جامعة اليرموك، كلية الآداب

13 المصدر نفسه.

14 المصدر نفسه.

15 نساء من الأندلس: أحمد خليل جمعة، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت.